الربيون ومسيرة النصر

قوة .. همة .. صبر.. توبة .. دعاء .. ففتح وجنة

بقلم الشيخ المجاهد
أبي يحيى الليبي حفظه الله
(حسن قائد)

مركز الفجر

ربيع الثاني ١٤٣٢هـ

الرِّبِّيُّون

ومسيرةُ النَّصر

قوة..همة..صبر..توبة..دعاء..ففتح وجنة

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾

بقلم الشيخ المجاهد

أبو يحيى الليبي (حسن قائد)

~ حفظه الله ~

مركــز الفجــر للإعــلام

ربيع الآخر١٤٣٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فمما لا شك فيه أن الأحوال والأحداث التي يمر بها المجاهدون في هذه المرحلة تستوجب منا تفكراً عميقاً في أمورنا، وتأملاً تاماً في أحداثنا، ونظراً متجرداً في مستجداتنا، وتقليباً لصفحات مجرياتنا، من غير تهويلٍ ولا غفلةٍ، حتى نستطيع أن نستوعب استيعاباً صحيحاً كل المجريات الطارئة التي لم تزل تتجدد وتتعدد، فعندها يمكن أن نقف على الداء، وندرك ما هو المطلوب منا عملياً لنتجاوز كل عقبةٍ ونواصل مسيرتنا الجهادية المباركة من غير كللٍ ولا مللٍ ولا ترددٍ ولا ضعفٍ أو تهاون، فالحوادث العظام لا يدعها العقلاء تمرُّ عليهم من غير تدبر واعتبار، بل يستخلصون عبرها ويستنتجون دروسها فيتخذونها زاداً يَشدُّون به من أزرهم ويَسدُّونَ ثغراتهم فيقطعون فيافيَ الزمن ويتجاوزون عقبات الحادثات واحدةً واحدةً حتى يبلغوا المنتهى على أتم حالٍ وأنفعه لهم في الدنيا والآخرة.
ولذا أحببت أن ندخل هذه القضية من خلال آية عظيمةٍ في كتاب الله تعالى الذي أنزله الله سبحانه رحمةً وشفاءً للمؤمنين، وجعله تبياناً لكل شيءٍ كما قال عز وجل : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس/٥٧]، وقال عز وجل : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ} [فصلت/٤٤] مشفِّعاً ذلك بما يتيسر من قبسات مشكاة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومستأنساً بكلامٍ لأئمتنا الأعلام –رحمهم الله تعالى- وسأجعل ذلك على صورة نقاطٍ مختصرةٍ قدر الإمكانٍ ومبيَّنة ومركزةٍ، إذ المقصود هو الوقوف على ما أمكن من التوجيهات والإرشادات القرآنية لتكون لنا نبراساً نسترشد به في طريقنا الذي نرجوا أن يكون آخرَه جناتٌ ونهرٌ في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وأسأل الله الكريم السداد والتوفيق.

لما أشيع بين جيش المسلمين يومَ أحدٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، فتَّ ذلك في عضد كثيرٍ منهم، وتنوعت من هذا الحدث الجلل مواقفُهم، ونطقت بعضُ الألسنِ بما لا ينبغي، إذ كان وقعه أعظم مما يُتوقع لجسامته البالغة- وهو كذلك بلا شكٍ-، لا سيما وقد نزلت تلك المصيبة بعد الانتصار الساحق والفتح المظفر الذي حققه المسلمون في غزوة بدر حيث كانوا أقل عدداً وعدةً : {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[آل عمران/١٢٣]، وبقي أهل الرسوخ والإيمان –كما هو دأبهم- أمام إعصار هذا الحادث ثابتين على سبيل الحق قولاً وعملاً مثبِّتين لمن تزلزل واضطرب ومقوِّين عزيمة مَن خار وانهار، فكانت الأقوال تجاه هذا الحدث مقسّمةً بين أهل التربُص والنفاق، وأهل الريب مرضى القلوب، وأهل اليقين والثبات:

فقال بعضهم : (ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبيٍّ، فيأخذ لنا أمَنَةً من أبي سفيان!! يا قوم، إن محمدًا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم).

وقال بعضهم : (والذي نفسي بيده، لئن كان النبي صلى الله عليه وسلم قُتل، لنعطينَّهم بأيدينا، إنهم لعشائرنا وإخواننا"!)

وقال ناسٌ من أهل الارتياب والمرض والنفاق، يوم فرّ الناس عن نبي الله صلى الله عليه وسلم وشُجَّ فوق حاجبه وكُسرت رباعيته:(قُتل محمد، فالحقوا بدينكم الأول!).

وقال أناس من عِلْيَة أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم:(قاتلوا على ما قاتل عليه محمدٌ نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به).

وقال بعضهم : (إن كان محمد قد قتل، فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم).

فأنزل الله عز وجل إثر ذلك الاضطراب الذي حصل لجيش المسلمين بشيوع مقتل النبي صلى الله عليه وسلم : {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}[آل عمران/١٤٤].

قال الإمام ابن جرير –رحمه الله- : (...ثم قال لأصحاب محمد، معاتبَهم على ما كان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحُد:"إنّ محمدًا قتل"، ومُقبِّحًا إليهم انصرافَ من انصرفَ

منهم عن عدوهم وانهزامه عنهم: أفائن مات محمد أيها القوم، لانقضاء مدة أجله، أو قتله عدو = "انقلبتم على أعقابكم"، = يعني: ارتددتم عن دينكم الذي بعث الله محمدًا بالدعاء إليه ورجعتم عنه كفارًا بالله بعد الإيمان به، وبعد ما قد وَضَحت لكم صحةُ ما دعاكم محمد إليه، وحقيقةُ ما جاءكم به من عند ربه...)[تفسير الطبري: ٧ / ٢٥١].

وقال العلامة السعدي –رحمه الله-: (وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالةٍ لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فقدُ رئيسٍ ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعِدةِ أُناسٍ من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.)[تفسير السعدي :١٥٠].

وكان من الآيات التي أنزلت في هذا الصدد تعليماً للصحابة رضي الله عنهم، وتصبيراً لهم، وحثاً للائتساء بمن سبقهم قوله عز وجل : {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران/١٤٦-١٤٨].

فالآية مرتبطة بما سبقها وإن تخللهما آيةٌ، والسياق واضح الدلالة على ذلك، والترابط بينهما واتحاد موضوعهما في غاية البيان، كما قال الإمام ابن جريرٍ –رحمه الله- : (لأن الله عز وجل إنما عاتب بهذه الآية والآيات التي قبلها = من قوله:(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) الذين انهزموا يوم أحُد، وتركوا القتال، أو سمعوا الصائح يصيح:"إن محمدًا قد قتل". فعذلهم الله عز وجل على فرارهم وتَرْكِهم القتالَ فقال: أفائن مات محمد أو قتل، أيها المؤمنون، ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟ ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قتل نبيهم = من المضي على منهاج نبيهم، والقتال على دينه أعداءَ دين الله، على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم = و لم تهنوا و لم تضعفوا، كما

لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر من أتباع الأنبياء إذا قتل نبيهم، ولكنهم صَبروا لأعدائهم حتى حكم الله بينهم وبينهم؟)[تفسير الطبري :٧ / ٢٦٤].

وقد ذكر العلماء في الآية معانيَ عدة بناءً على الاختلاف في قراءة قوله تعالى (قاتلَ) أو (قُتِل)، إلا أن المعنى العام للآية كما قال العلامة رشيد رضا –رحمه الله- : (والمعنى: أن كثيرا من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم المنتسبين إلى الرب تعالى في وجهة قلوبهم وفي أعمالهم، المعتقدين أن النبيين والمرسلين هداة ومعلمون لا أرباب معبودون، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله أي ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح وبعضهم من القتل وإن كان المقتول هو النبي نفسه لأنهم يقاتلون في سبيل الله وهو ربهم لا في سبيل شخص نبيهم وإنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربه وبيانه لهدايته وأحكامه "وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين"وما ضعفوا عن جهادهم ولا استكانوا ولا ولوا بالانقلاب على أعقابهم بل ثبتوا بعد قتل نبيهم كما ثبتوا معه في حياته لأن علة الثبات في الحالين واحدة وهي كون الجهاد في سبيل الله أي في الطريق التي يرضاها الله كحفظ الحق وحمايته، وتقرير العدل وإقامته، وما يتبع ذلك ويلزمه.)[تفسير المنار: ٤/١٧١].

ومن هنا فنحاول أن نقف وقفات عند هذه الآيات الكريمات، وربط معانيها بما نحن فيه بما يفتح الله تعالى:

<u>الوقفة الأولى</u> : أن كثرة قتل القادة والأمراء والخِيارِ من العلماء والصلحاء وغيرهم في الجهاد أمرٌ واقعٌ فيما مضى ومتوقّعٌ في كلِّ حينٍ وهو بمجرده لا يدلُ على انحرافِ الطريقِ التي يسلكونها، بل لو قيل بالعكس لما كان بعيداً، فقوله تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) ذكر فيه العلماء عدةَ معانٍ لا يخرج مجموعها عن الدلالة على كثرة وقوع القتل سواء في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أم في حق جيوشهم وأتباعهم، فإذا كان هذا في شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم المؤيَّدون فَلأَنْ يُتَوقع في غيرهم أولى وأحرى، فقوله تعالى : (وَكَأَيِّنْ) يدل على أن هذا وقع كثيراً متكرِّراً، و لم يكن حادثةً نادرةً في موقعةٍ عابرة، أي كم من نبيٍّ قُتِلَ في المعركة أو في غيرها وقُتِلَ معه ربيّون كثير فمن بقيَ منهم ثبت و لم يَهِن و لم يضعف واستمر على ما كان عليه إخوانه، أو كم من نبيٍّ قاتلَ بنفسه وقُتِلَ معه ربيون

كثير، أو كم من نبيٍّ قُتِل وقاتل معه ربيون كثيرٌ فما أثر قتل النبي في أتباعه بحيث نكصوا على أعقابهم، فالمقصود أن الدلالة على كثرة حصول القتل بينهم بيِّنة في الآية.

قال الثعلبي النيسابوري –رحمه الله– : (ومن قرأ (قُتِل) فله ثلاثة أوجه:

أحدها : أن يكون القتل واقعاً على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قراءة (قتل) فيكون في الآية إضمار معناه ومعه (ربّيون كثير) كما يقال : قتل الأمير معه جيش عظيم، أي ومعه، ويقول : خرجتُ معي تجارة، أي ومعي.

والوجه الثاني : أن يكون القتل نال النبي ومعه من الربيين، ويكون وجه الكلام: قتل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني فلان، وإنما قتلوا بعضهم ويكون قوله: (فما وهنوا) راجعاً إلى الباقين الذين لم يقتلوا.

والوجه الثالث : أن يكون القتل للربيين لا غير.)[الكشف والبيان:٣ / ١٨١].

قال ابن الجوزي –رحمه الله– : (وفي معنى الربيين خمسة أقوال:

أحدها : أنهم الألوف، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، واختاره الفراء.

والثاني : الجماعات الكثيرة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة والضحاك، وقتادة، والسدي، والربيع، واختاره ابن قتيبة.

والثالث : أنهم الفقهاء والعلماء، رواه سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وبه قال الحسن، واختاره اليزيدي، والزجاج .

والرابع : أنهم الأتباع، قاله ابن زيد .

والخامس : أنهم المتألهون العارفون بالله تعالى، قاله ابن فارس.)[زاد المسير:١ / ٤٢٦].

ولشيخ الإسلام –رحمه الله– كلامٌ طويل عن الآية يمكن مراجعته في (مجموع الفتاوى :٥٨/١) وما بعدها.

بل قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ يشير إلى أن كلا الأمرين كان ممكناً ومتوقّعاً في حق سيد الخلق عليه الصلاة والسلام من موتٍ أو قتلٍ، كما قال شيخ الإسلام –رحمه الله– : (أي: ليس مخلداً في الدنيا لا يموت ولا يقتل، بل يجوز عليه ما جاز على إخوانه المرسلين من الموت أو القتل)[مجموع الفتاوى:١٨ /٢٦٧].

وقد جمع الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بين السعادة والشهادة إذ مات عليه الصلاة والسلام بالسّم الذي جعل له في الشاة يوم خيبر كما روى البخاري –تعليقاً– عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أَبْهَري من ذلك السم).

وقال عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– : (لأن أحلف بالله تسعاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل قتلا أحب إليَّ من أن أحلف واحدة، وذلك بأن الله عز وجل اتخذه نبياً وجعله شهيداً) رواه أحمد، والحاكم، وغيرهما، وقال الزهري –رحمه الله– : (مات رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيداً).

قال بعض العلماء : (والأبهر بفتح الهمزة والهاء بينهما موحدة: عرق يتعلق به القلب فإذا انقطع مات صاحبها، والسر في ذلك أن ينضم له صلى الله عليه و سلم مع النبوة درجة الشهادة)[شرح سنن ابن ماجه: ١ / ٢٥٤].

فإذا كان هذا في حق خير الخلق وأزكاهم وأحبهم إلى الله تعالى فكيف بمن دونه من أتباعه، بل يُعَدُّ هذا زيادة في درجاتهم وعلوِّ منزلتهم كما قال شيخ الإسلام –رحمه الله– بعدما عدَّد شيئاً مما أكرم الله به الشهداء: (فإذا كان هذا قتلى المؤمنين فما الظن بقتلى الأنبياء ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح)[الجواب الصحيح:٦ /٤١٥].

ثم من المعلوم أن وقعة أحد حدثت في السنة الثالثة للهجرة، أي في أوائل تكوين الدولة الإسلامية فكانت إذ ذاك قليلة العدد، ومع ذلك قُتل فيها سبعون من الصحابة منهم سيد الشهداء وأسد الله ورسوله أحد قادة الإسلام حمزة بن عبد المطلب وغيره من الأخيار من المهاجرين والأنصار، وفقدان مثل هذا العدد في مثل هذه الحالة يُعدُّ كبيراً جداً، لا سيما وفيهم من الأبطال الذين كانت حاجة الإسلام إلى مثلهم أشد ما تكون بعدما نجم النفاق، وانتشى كَفرةُ المشركين بنصرهم الموهوم في هذه الغزوة، مع تربص اليهود بالمسلمين وتحينهم لاقتناص الفرص ضدهم، ولهذا كان وقع مقتلهم على النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته عظيماً، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرهم ويتذكرهم ويدعو لهم إلى قُبيل موته، ومع هذا كله فإن النبي صلى الله عليه وسلم بادر في اليوم التالي للغزوة –والناس في

مصابهم وجراحاتهم وقوة وقع الحدث عليهم- للخروج لملاحقة جيش أبي سفيان معلناً بذلك أن جروح الأجساد ونقصان الأنفس وفقدان الأحبة وتراكم الهموم لا يوهن القلوب ولا يضعف العزائم ولا يُجلب الهزائم ولا يُزهِّدُ في الجهاد ولا يفت في الأعضاد أو يُبعِّد عن الجلاد، ومعلِّماً أمته أن مسيرة الجهاد مستمرةٌ رغم الآلام كما سجَّل القرآن ذلك المشهد العظيم الذي تقف أقلام الأدباء عاجزةً عن توفيته حقَّه مهما بلغت من البراعة والبلاغة قال الله تعالى : {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}[آل عمران/١٧٢ -١٧٤].

وذلك في غزوة حمراء الأسد، وهذا الموقف من النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الذين ندبهم للخروج –مع جراحاتهم- فاستجابوا ولم يتعذَّروا يعد قمةً في قوة العزيمة، وشدة الشكيمة، والتحزُّم في الأمر، والجَلَد في المصابرة، وسمو الهمةِ، ونَفَس التحدِّي والثقة التامة بالله عز وجل وحسن التوكل عليه وتفويض الأمور إليه، ولعمر الله إنه لدرسٌ وأي درسٍ، ومن تجرّع مرارة الهزيمة، وذاق آلام الجراح، من الضرب والرمي وطعن الرماح، وأطبقت عليه هموم فقدان الأحباب، وما لبث أن التقط أنفاسه ونال شيئاً من فرح النجاة من الموت وبلوغ المأمن، فيدعى ثانيةً للنفير ولَمّا يلتئم جرحه ويتوقف نزفه ويسترد قواه فيقوم –مع ذلك- مستجيباً للأمر طيبةً نفسه –هذا مع التهويل من جموع العدو وإعادة كرَّتهم – ليعلم حقاً قدر ذلك القرن الذي لو أنفق مَن بعدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، وهكذا ينبغي أن يكون أتباعهم المجاهدون من بعدهم بين يدي مصائبهم والله المستعان.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ** إن التشبه بالكرام فلاح

الوقفة الثانية : أن كثرة القتل والجراح في الجهاد سواء في حق القادة أو عموم المجاهدين هو مصيبةٌ من المصائب، وهو في الوقت نفسه اختبارٌ يبتلي الله به عباده المؤمنين المجاهدين كما قال هنا : (لِمَا أَصَابَهُمْ)، وقال في وقائع غزوة أحد : { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ}[آل عمران/١٦٥]، وقال سبحانه : {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ

فَبِإِذْنِ}[آل عمران/١٦٦] وسمَّاه قرحاً : {مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ}[آل عمران/١٧٢]، وقال أيضاً :{إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ}[آل عمران/١٤٠]، وهذا المصاب الذي نزل بالمؤمنين إنما هو باعتبار مجموعهم لا باعتبار جميعهم، أي أن القتل والجراح لم تُصب كل واحدٍ منهم وتلحقهم فرداً فرداً، وإنما باعتبارهم كالجسد الواحد فقتلُ بعضِهم يؤدي إلى همٍّ وغمٍّ وآلامٍ وأحزانٍ لغيرهم كما قال تعالى : {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء/١٠٤].

وفي هذا إشارةٌ إلى قوة تلاحمهم وتعاضدهم وتراصِّهم وموالاتهم لبعضهم وقوة مودتهم وتراحمهم واجتماع أمرهم حتى صاروا بذلك تماماً كجسدٍ واحدٍ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فمصاب بعضهم مصاب كلِّهم، فمسّهم القرح وشملهم الألم وعمتهم المصيبة، قال ابن عاشور –رحمه الله- عن القرح الذي أصاب المسلمين يوم أحد : (وهو هنا مستعمل في غير حقيقته، بل هو استعارة للهزيمة التي أصابتهم، فإن الهزيمة تشبه بالثلمة وبالانكسار، فشبهت هنا بالقرح حين يصيب الجسد، ولا يصح أن يراد به الحقيقة؛ لأن الجراح التي تصيب الجيش لا يعبأ بها إذا كان معها النصر، فلا شك أن التسلية وقعت عما أصابهم من الهزيمة.)[التحرير والتنوير:٣ /٢٢٨]، هذا مع أنه ورد عن بعض السلف تفسير القرح بالقتل والجراح التي أصابتهم في تلك الغزوة، ولكن –والله أعلم- يمكن أن يكون المعنى شاملاً لذلك كله حيث اجتمع عليهم فيها استشهاد بعضهم، وإصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعددٍ من الصحابة، ثم الانكسار بعد الانتصار كما قال سبحانه : {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ...الآية}[آل عمران/١٥٢]

وهذا القتل الذي يلحق المجاهدين من قادةٍ وجندٍ يؤدي حتماً إلى نقصان عددهم، وخلوِّ كثيرٍ من ثغرات الجهاد الملحّةِ ممن يقوم عليها كما تستحق، لأن الأولين ممن فركتهم المحن وعركتهم الأحداث وأنضجتهم التجارب ليسوا كالآخِرين الذين هم في مبدأ الطريق، فيجتمع عليهم همُّ الفقد لإخوانهم وثقل ما تحملوه من أعباء بعدهم، والعجز عن توفية الأمور حقِّها وسدِّ منافذها، لاتساع العمل وقلّة من يقوم عليه، فيحصل بذلك ضيقٌ وشدةٌ

وحرجٌ مما يستوجب الصبر منهم، فهنا تظهر معادن الرجال، ويعرف مَن بكى ممن تباكى، وتتجلَّى قوة أهل الإيمان والثقة بالله المستيقنين بصحة ما هم عليه، الذين يزدادون بهذه الضائقة إيماناً وتصديقاً وتسليماً، فيجعلونها من زادهم على الطريق لا من المعوِّقات التي يتعثرون عندها أو يتساقطون على حافتها أو يَلفتون وجوههم عند معاينتها، تماماً كما قال تعالى عن السابقين الأولين الذين هم قدوةٌ لمن لحقهم : {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}[الأحزاب/٢٢]، قال الإمام ابن كثير –رحمه الله– : (ومعنى قوله: "وَمَا زَادَهُمْ" أي: ذلك الحال والضيق والشدة "ما زادهم إلا إِيمَانًا" بالله ، "وَتَسْلِيمًا"أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله.)[تفسير ابن كثير:٦ / ٣٩٢].

فالله سبحانه يجعل ذلك نوعاً من الابتلاءات التي يُظهِر بها الصابرين الثابتين، والمجاهدين الصادقين، كما قال تعالى في تعداد ما يختبر به عباده – ومنها نقصان الأنفس – : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[البقرة/١٥٤، ١٥٥].

قال ابن جريرٍ – رحمه الله – : (ومعنى قوله:"وَلنبلونكم"، ولنختبرنكم...وقوله:"بشيء من الخوف"، يعني من الخوف من العدو، وبالجوع –وهو القحط– يقول: لنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم وبسَنةٍ تُصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعذر المطالب عليكم، فتنقص لذلك أموالكم، وحروبٌ تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عددكم، وموتُ ذراريكم وأولادكم، وجُدوب تحدُث، فتنقص لها ثماركم. كل ذلك امتحان مني لكم، واختبار مني لكم، فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهل البصائر في دينهم منكم، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب.)[تفسير الطبري : ٣ / ٢٢٠]. فليُتأمل هذا الكلام جيداً ولينظر في المراحل التي يمر بها الجهاد والمجاهدون بين حين وحين ليزداد به سالكو هذا الطريق إيماناً بربهم وتيقناً بما هم عليه، فلا يتزعزعون أو يترددون، وليكونوا من أهل البصائر في دينهم ويتميزوا عن المرتابين المضطربين من أهل النفاق ومرضى القلوب الذين يعدون كل ذلك مغرماً لا مغنم معه.

وقال سبحانه : {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران/١٤٢]، وقال عز وجل : {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [التوبة/١٦]، وقال عز من قائل : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[محمد/٣١]

وهذا يستوجب على كل من وفقه الله لسلوك سبيل الجهاد أن يوطِّن نفسه على هذا الأمر، ما بين كثرة قتلى من الخيار، وقلة أموالٍ، ونقص عتادٍ، وشدة حصارٍ، واضطراب أحوالٍ، وازدياد إرجاف، وانتفاش عدوٍّ، ولوم لائمين، وعبث مفسدين، ولا يظننَّ ظانٌّ أن موكب الجهاد يسير في كل وقتٍ ومكانٍ على وتيرةٍ واحدةٍ من السعةِ والوفور والأمان وتوالي الفتوحات وتتابع الانتصارات وتَيسّر الأحوال، فيصطدم عند أولِ عقبةِ ابتلاءٍ تعترضه فيظن بالله ظن السوء ويحسب أنَّ الأمر قد ولى فيُهلكَ نفسه بهذا الظنِّ، ويكون حاله كحال ضعاف الإيمان من قبله ممن قال الله فيهم: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا}[الفتح/١٢]. ثم يستجيب لداعي نفسه فتقوده إلى الخذلان ومستنقع الهوان ويحسب عندها أنه نجَّاها، فتراه حاملاً شبهاته حازماً أمتعته مولياً دبره ليعيش تحت مِنَّة الطغاة التي يفضِّل أهل عزة الإيمان وعلوِّه أن يقتلوا مائة مرةٍ ولا يرضون بساعةٍ واحدةٍ تحت ذلِّهم الخادع ولو كان في فندق من خمسة أنجم أو أكثر، فما يلبث ذلك المسكين أن تتشبع نفسه بالدعة وترضى بالسكون وتقنع بالركون وتثَّاقل إلى الأرض وتَشبَّث بالعَرَض فتُغشي بصيرتَه زهرتُها فتراه –في فتنته– ينظر إلى مَن كان بين صفوفهم ونفسه توسوس له –وربما غلبته فنطق لسانه بملئها– : {غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ}[الأنفال/٤٩]، نسأل الله السلامة والعافية والثبات : {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النور/٦٣].

الوقفة الثالثة : أن تلك المصائب التي تلحق المجاهدين، من كثرة القتل وشدة الجراح ونقصان الأنفسِ يُعَد في أصله –وبالنظر إليه مجرداً– من الأسباب الموجبة للهون والضعف

والاستكانة، ولكن مع قوة الداعي لهذه الأمور من حيث الأصل إلا أن أهل الإيمان الراسخ والعزيمة الصادقة واليقين المتمكن لا ينقادون لذلك الموجِب ولا يستسلمون له ولا يدعونه يغلب عليهم أو يهيمن على نفوسهم ولا يجعلونه مدعاةً للفشل والخور والإذعان لعدوِّهم، بل يدافعونه بقوة إيمانهم ويطردونه بشدة عزيمتهم ويبددونه بإخلاصهم فلا يبقى له محلٌّ في قلوبهم ولا يظهر له أثرٌ في أعمالهم، فلا تنطق الألسن بالتضجر ولا التذمّر، ولهذا مدح الله سبحانه أولئك الربيين بقوله : (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)[آل عمران/١٤٦].

قال الإمام ابن القيم –رحمه الله-: (أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا وقتل معهم أتباع لهم كثيرون، فما وهن من بقي منهم لما أصابهم فى سبيله، وما ضعفوا، وما استكانوا، وما وهنوا عند القتل، ولا ضعفوا، ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة، والعزيمة، والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة، بل استشهدوا أعزة كراما مقبلين غير مدبرين)[زاد المعاد : ٣ / ٢٢٥].

فظهر من ذلك أن عدم الوهن والضعف والاستكانة كلٌّ ذلك عملٌ مكتسبٌ يمكن تحصيله، فيصبح المرء المسلم المجاهد عند حلول مثل تلك المصائب بين أن يستجيب لداعيها وينقاد لتأثيرها فتورثه ضعفاً وخوراً واستكانةً فيُذم، وبين أن يردها ويقوي قلبه لدفعها ويجمع لها موجبات إبعادها فتشتد عزيمته ويَظهر صبرُ وتصبُره فيمدح، ومن هنا فإن الله عز وجل قد نهى عباده المؤمنين عن الوهن والضعف أمام عدوهم فقال : {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ}[آل عمران/١٣٩، ١٤٠]، وقال سبحانه :{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ}[النساء/١٠٤]، وقال سبحانه : {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ}[محمد/٣٥]وإنما ينهى المرء عن فعلٍ هو قادرٌ على تركه وعدمِ الاتصاف به وإلا كان تكليفاً بما لا يطاق، ويزداد ويتأكد مدحه وحمدُه إن فعل ما هو ضده من الأعمال الصالحة والأوصاف الحميدة كالعزيمة والقوة والثبات هنا، ولهذا مدح الله الربيين بعدم ضعفهم لنتأسى بهم ونفعل فعلهم، ونهانا عن الضعف أمام عدونا لنسلك سيرهم.

قال العلامة أبو السعود –رحمه الله- : (قوله تعالى : "فَمَا وَهَنُواْ" عطفٌ على قاتَلَ على أن المرادَ به عدمُ الوهنِ المتوقَّعِ من القتال كما في قولك : وعظتُه فلم يتَّعِظْ وصِحْتُ به فلم يترجرْ فإن الإتيانَ بالشيء بعد ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه وإن كان استمراراً عليه بحسب الظاهرِ ولكنه بحسب الحقيقةِ صنعٌ جديدٌ مصحِّحٌ لدخول الفاءِ المرتبةِ له على ما قبله أي فما فتَروا وما انكسرت هِمتُهم "لِمَا أَصَابَهُمْ" في أثناء القتالِ وهو علةٌ للمنفيّ دون النفيِ)[تفسير أبي السعود : ١ / ٤٦٩].

فقد ذكر الله تعالى ثلاثة أمورٍ مذمومة لم تُصب أولئك الربيين ولم تلتصق بهم فاستحقوا المدح بنفيها عن أنفسهم، وهي الوهَن، والضعف، والاستكانة، قال الإمام ابن جرير رحمه الله - : (يعني بقوله تعالى ذكره:"فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله"، فما عجزوا = لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتل من قُتل منهم =، عن حرب أعداء الله، ولا نكلوا عن جهادهم ="وما ضعفوا"، يقول: وما ضعفت قواهم لقتل نبيهم ="وما استكانوا"، يعني وما ذلوا فيتخشَّعوا لعدوّهم بالدخول في دينهم ومداهنتهم فيه خيفة منهم، ولكن مضوا قُدُمًا على بصائرهم ومنهاج نبيِّهم، صبرًا على أمر الله وأمر نبيهم، وطاعة لله واتباعًا لتنزيله ووحيه)[تفسير الطبري:٧ / ٢٦٩].

وقال العلامة ابن عاشور –رحمه الله- في ذلك : (وجمع بين الوهن والضعف، وهما متقاربان تقارباً قريباً من الترادف؛ فالوهن قلة القدرة على العمل، وعلى النهوض في الأمر، وفعله ... والضعف بضم الضاد وفتحها ضد القوة في البدن، وهما هنا مجازان، فالأول أقرب إلى العزيمة، ودبين النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة. وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء، وجاء الاستسلام، فتبعه المذلة والخضوع للعدو.)[التحرير والتنوير:٣ / ٢٤٤]،وقال العلامة السعدي –رحمه الله- : (ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم)[تفسير السعدي : ١٥١].

فأصبح كل سابقٍ من هذه الثلاثة كأنه سببٌ في تولّد اللاحق وحصوله، فوهن القلب وخوره وشدة جزعه يقود إلى ضعف الأعضاء عن العمل وتهاونها في القيام بالمهام وتراخيها

في الاضطلاع بأعبائه، وإذا وقع ذلك انقطع دفعهم لعدوهم وانعدم قتالهم لهم فيؤدي ذلك إلى تجرؤ عدوهم واستعلائهم عليهم فيحصل الخضوع والاستسلام والاستكانة لهم.

والمقصود من ذلك أن المصائب مهما تعاظمت وتفاقمت وحطت برحالها المثقلة في سوح الجهاد فلا ينبغي أن تكون سبباً في التراخي والخور والوهن والفتور، ولا الانكسار أمام العدو والخضوع له، فالأمر يحتاج إلى تحملٍ وتكلفٍ وتصبُّرٍ تُطرد به كل تلك الأدواء القاتلة، وإلى محاربة داعي النفسِ وقطع أسباب التخاذل والتكاسل، وسد كل المنافذ التي يمكن أن يتسرب منها شيء إلى القلب، فمن الأسباب التي تعين على قوة القلب وإبعاد الوهن وعدم الخضوع للعدو:

الأول : دعاء المجاهدين ربَّهم بأن يثبتهم كما سيأتي فيما حكاه الله تعالى عن الربيين من قولهم : {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}[آل عمران/١٤٧]، وكما حكى سبحانه عن أصحاب طالوت لما عاينوا عدوَّهم : { وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[البقرة/٢٥٠].

الثاني : الثبات في المعركة وعدم الفرار، كما قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا}[الأنفال/٤٥]، وقال عز وجل : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}[الأنفال/١٥].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : (لا تمنوا لقاء العدو وسلوا العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا) أخرجه ابن أبي شيبة، والبيهقي وغيرهما ، ولفظ الصحيحين : (فإذا لقيتموهم فاصبروا)، وروى ابن أبي شيبة عن أبي مسافع ، قال : (كتب إلينا عمر بن الخطاب ونحن مع النعمان بن مقرن : إذا لقيتم العدو فلا تفروا).

الثالث : التأسي بمن سبق من أهل العزيمة والشجاعة والمصابرة ممن عاينوا أنواع الأهوال وخالطوا ألوان المصائب، وركبوها طبقا عن طبق، ومع ذلك لم يلينوا ولم يضعفوا ولم يورثهم كل ذلك إلا قوةً وثباتاً، فقوله تعالى : {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا} [آل عمران/١٤٦]، جاء بعد بيان ما حلَّ بالصحابة رضي الله عنهم من الاضطراب إثر شيوع مقتل النبي صلى الله عليه

وسلم، وذلك حتى يبين لهم أن ما أصابهم قد أصاب أمثالهم من الأولين فكان عليهم أن يكونوا على طريقتهم في عدم الوهن والضعف والاستكانة كما قال أبو حيان –رحمه الله- : (لما كان من المؤمنين ما كان يوم أحد وعتب عليهم الله ما حذر منهم في الآيات التي تقدمت، أخبرهم بأنّ الأمم السالفة قتلت أنبياء لهم كثيرون أو قتل ربيون كثير معهم، فلم يلحقهم ما لحقكم من الوهن والضعف، ولا ثناهم عن القتال فُجْعُهم بقتل أنبيائهم، أو قتل ربييهم، بل مضوا قدماً في نصرة دينهم صابرين على ما حل بهم.

وقتل نبي أو أتباعه من أعظم المصاب، فكذلك كان ينبغي لكم التأسي بمن مضى من صالحي الأمم السابقة، هذا وأنتم خير الأمم، ونبيكم خير الأنبياء)[البحر المحيط: ٣ / ٤١٧].

وقال ابن عاشور –رحمه الله- : (واعلموا أنه إذا كان هذا شأن أتباع الأنبياء، وكانت النبوة هديا وتعليما، فلا بدع أن يكون هذا شأن أهل العلم، وأتباع الحق، أن لا يوهنهم، ولا يضعفهم، ولا يخضعهم مقاوم، ولا أذى حاسد، أو جاهل)[التحرير والتنوير: ٣ /٢٤٤].

فالتأسي بالخيار يبعث الهمم ويقوي العزم ويخفف الألم، ولهذا يخبر الله عز وجل نبيه بما كان يصيب الأنبياء قبله من شدة عداوة أقوامهم ومبالغتهم في أذاهم، وصبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على كل ذلك حتى يأتيهم فرج الله وفتحه كما قال سبحانه : {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام/٣٤]، قال الإمام ابن كثير –رحمه الله- عن هذه الآية : (هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة)[تفسير ابن كثير:٣ / ٢٥٢].

وقال سبحانه : {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود/١٢٠].

ومن ذلك الإكثار من قراءة مواقف الأبطال عند الشدائد، واستهانتهم بالأهوال وقتَ نزولها، وركوب أنواع المخاطر من غيرِ مبالاةٍ، واستهانتهم بغمراها، والتأمل في قوة إصرارهم واستماتتهم أمام عدوهم وبلوغهم الذروة من المصابرة والتحدي، كما حصل

للصحابة رضي الله تعالى عنهم في معركة اليمامة، وكيف تحملوا أنواع الجراح وتلافوا الانكسار وارتدى بعضهم أكفانهم تثبيتا لنفسه وتقوية لأصحابه، واستحر القتل في خيارهم وعلمائهم وسابقيهم فما تزحزحوا ولا تراجعوا حتى فتح الله عليهم.

الرابع : مواساة النفس بما يصيب الكفار من الآلام نظير ما يصيب أهل الجهاد والإيمان، كما قال تعالى : {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ}[النساء/١٠٤]، قال العلامة السعدي –رحمه الله– في هذه الآية : (أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك، فإن وَهَن القلب مستدع لوَهَن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء. بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم.

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى...)[تفسير السعدي: ١٩٩]، وقال سيد قطب –رحمه الله– : (فإذا أصر الكفار على المعركة، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصراراً، وإذا احتمل الكفار آلامها، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام . وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)[في ظلال القرآن:٢ / ٢٢٩]، وقال العلامة الرازي –رحمه الله– : (والمعنى أن حصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم ، فلما لم يصر خوف الألم مانعاً لهم عن قتالكم فكيف صار مانعاً لكم عن قتالهم.)[تفسير الرازي :٥ /٣٦٨].

وقال تعالى أيضاً : {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران/١٣٩، ١٤٠].

الخامس : الطمع فيما أعده الله عز وجل لعباده المجاهدين الصابرين، والتيقن بأن الأجر على قدر ما يعانونه من الشدة والبلاء والضيق، وهذا فارقٌ عظيمٌ بينهم وبين أعدائهم، فإن أولئك

اجتمع عليهم آلام الدنيا ومصائبها وخسران الآخرة وعذابها، فهم خاسرون على كل حالٍ، أما المؤمنون فلهم في كل صبرٍ أجر، وفي كل مصابٍ ثواب، وما بقي لهم عند ربهم خيرٌ مما فاهم في دنياهم، وما يستقبلهم من أمر الآخرة أفضل مما خلفهم من أمر الدنيا، كما قال تعالى في الآية السابقة مشجعاً عباده المؤمنين : {وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء/١٠٤]، وقد نقلت بعض ما ذكره العلامة السعدي عما يقوي قلوب المؤمنين وتكملتُه في قوله : (...الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: "وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" كامل العلم كامل الحكمة.)[تفسير السعدي : ١٩٩]، وقال العلامة الشوكاني –رحمه الله- : (ومع ذلك فلكم عليهم مزية لا توجد فيهم، وهي : أنكم ترجون من الله من الأجر وعظيم الجزاء مالا يرجونه لكفرهم وجحودهم، فأنتم أحقّ بالصبر منهم، وأولى بعدم الضعف منهم، فإن أنفسكم قوية؛ لأنها ترى الموت مغنماً، وهم يرونه مغرماً.)[فتح القدير:٢ / ٢٠٧].

وقال تعالى : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ}[التوبة/٥٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (ما من غازية، أو سرية تغزو فتغنم وتسلم، إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم لهم أجورهم) رواه مسلم.

السادس : الحذر الشديد من معصية الله تعالى، والخوف من الوقوع في شيءٍ منها أو الاستهانة بها، كما قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[آل عمران/١٥٥]، قال العلامة السعدي –رحمه الله- : (يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم "أحد" وما الذي

أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان.)[تفسير السعدي:١٥٣].

ومن المعاصي التي توجب الفشل والضعف التنازع والتفرق ومخالفة أمر الأمراء والتحايل في التنصل منه كما قال تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}[الأنفال/٤٦]، قال الإمام الطبري- رحمه الله- : (ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم = "فتفشلوا"، يقول: فتضعفوا وتجبنوا)[تفسير الطبري : ١٣ / ٥٧٥].

وكان بعض السلف يقول إن جزاء الحسنة حسنة بعدها، وجزاء السيئة سيئة بعدها، ومن تأمل هذه الآية لمح فيها هذا المعنى، فالتنازع والتفرق والاختلاف معصيةٌ لله تعالى وهذه كلها إنما تقع بالأقوال والأفعال وإن كان أصل مصدرها تنافر القلوب أو قد تكون مفضية إلى تنافرها لعلاقة الباطن بالظاهر كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)، وكذلك قوله : (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) ولكن الله عز وجل جعل من عقوبة اختلافهم فشلهم أي جبنهم كما فسر غير واحدٍ من العلماء الفشل في الآية بالجبن، والجبن محله القلب وإنما تظهر آثاره على أعمال الإنسان، فإذا حصل الفشل وتمكن الجبن في القلب ذهبت الريح أي القوة وتمكّنَ الأعداء، فانظر –رحمك الله- شؤم الاختلاف وعواقبه على المرء وعلى إخوانه.

وأنقل هنا كلاماً قيماً للعلامة ابن عاشور –رحمه الله- حول آية الأنفال المذكورة : (وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضا، حتى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى: "وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ" وقوله: "فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ".

والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور: لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي.

ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة بسط القرآن القول فيه ببيان سيئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله: "فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ" فحذرهم أمرين معلوما سوء مغبتهما: وهما الفشل وذهاب الريح.

والفشل: انحطاط القوة وقد تقدم آنفا عند قوله: "وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ" وهو هنا مراد به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو، ويصح أن يكون تمثيلا لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوته وفشلت أعضاؤه، في انعدام إقدامه على العمل. وإنما كان التنازع مفضيا إلى الفشل لأنه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضا، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو، كما قال في سورة آل عمران: "حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ".)[التحرير والتنوير : ٩ / ١٢٣].

هذا ومن أسباب اجتماع كلمة الأمة اشتغالها بالجهاد حقيقةً، كما أن من دواعي تفرقها تركها له، وهذا كما يلحق الأمة عموماً فهو عن المجاهدين ليس ببعيد، فحيث اشتغلوا بالجهاد وتحصيل أسبابه من إعدادٍ وتدريبٍ، ومقارعة لأعدائهم ألف الله بين قلوبهم وجمع كلمتهم ووحّد صفوفهم فازدادوا قوة إلى قوتهم، وحيث اشتغلوا ببنيات الطريق وألْهتهم هيشات الأسواق وأماتوا أوقاتهم في جلسات القيل والقال دب بينهم الخلاف وسرى في جماعتهم التنافر والتدابر فما أعجل تسلط أعدائهم عليهم حينئذ، قال شيخ الإسلام –رحمه الله– في رسالته للسلطان : (ومتى جاهدت الأمة عدوها ألَّف اللَّه بين قلوبها، وإن تركت الجهاد شغل بعضها ببعض).

الوقفة الرابعة : في قوله تعالى في الآية الكريمة : {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}[آل عمران/١٤٦]، إشارة إلى أن أولئك الربيين ممدوحون بما نفاه عنهم من عدم الوهن والضعف والاستكانة، وممدوحون أيضاً بما قابل ذلك من الصبر على الشدة التي لاقوها من عدوهم، ثم أثبت الله لهم محبته بصبرهم ذلك، ومع عموم هذه المحبة للصابرين إلا أن سياقها يدل على أن الربيين كانوا منهم وأولى الداخلين فيهم، كما قال العلامة الألوسي –رحمه الله

- : ("والله يُحِبُّ الصابرين" على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره في سبيله فينصرهم ويعظم قدرهم، والمراد بالصابرين إما الربيون، والإظهار في موضع الإضمار للتصريح بالثناء عليهم بالصبر الذي هو ملاك الأمر مع الإشعار بعلة الحكم، وإما ما يعمهم وغيرهم وهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً)[تفسير الألوسي: ٣ / ٢٥٦].

وقال الإمام الطبري –رحمه الله– : ("والله يحب الصابرين"، يقول: والله يحب هؤلاء وأمثالهم من الصابرين لأمره وطاعته وطاعة رسوله في جهاد عدوه، لا مَنْ فشل ففرَّ عن عدوه، ولا من انقلب على عقبيه فذلّ لعدوه لأنْ قُتِل نبيه أو مات، ولا مَن دخله وهن عن عدوه، وضعفٌ لفقد نبيه.)[تفسير الطبري: ٧ /٢٧٠].

وهذا مما يهوِّن المصاب ويُنسي صاحبَه مرارته بل ربما انقلب راحة وحلاوةً وهناءً إن استحضر من قلبه واستيقن أن تحمُّله لتلك الشدائد وتجلده أمامها يدخله في زمرة المحبوبين عند الله تعالى، فأي مطلبٍ وراء هذا المطلب، وأية منقبة فوق هذه المنقبة، نسأل الله أن يجعلنا ممن يحبهم ويحبونه.

كما أن الآية تشير إلى أن سبيل الجهاد لا بد له من صبر على مكارهه ومكابدةٍ لمطالبه وجَلَدٍ على مضِّ نوازله ثم مصابرةٍ على تعنّت أعدئه ومعاندهم، وذلك لأنه مظنة نزول الشدائد وحلول الجراح ومعالجة المشاق فاحتاج سالكه إلى معرفة كل ذلك ليتخذ صبره عليه عدةً يسلك بها دروبه على بينة وتثبت، ولا يكون دخوله لساحاته بمجرد طفرةِ حماسةٍ متقدة تخبو عند مواجهة الحقائق والنزول إلى ميدان العمل ومداخلة صنوف المشكلات، ففيه قتل وجرح، وانكسار وهزيمة، وجوع وفقر، وخوف وتخطُّف، وأسفارٍ وحصارٍ، إذ تتزلزل النفوس وتبلغ فيه القلوب الحناجر، وتدور الأعين كحال المغشيِّ عليه من الموت، وغير ذلك مما جمعه قوله تعالى {وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة/٢١٦]، وقال تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[التوبة/١٢٠].

فلا غرو إذاً أن حاجة المجاهد إلى الصبر أشد ما تكون في كل لحظة من لحظاته وعقبة من عقباته، ومن هنا جاء في الكتاب العزيز الأمر به والحث عليه والترغيب فيه ومدح أهله في مواطن عدةٍ كما قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[آل عمران/٢٠٠]، وبين لنا الله عز وجل أن الصبر مما يستعان به على تخفيف الكروب وتجاوز المحن فقال : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[البقرة/١٥٣]، وقال سبحانه أيضاً : {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}[البقرة/٤٥]، وقال عز وجل في معيته الخاصة لعباده المؤمنين الصابرين : {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال/٤٦]، وقال سبحانه : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[البقرة/١٥٥]، وأخبرنا عز وجل بأنه يمتحن عباده المؤمنين ليعلم المجاهدين منهم ويعلم الصابرين وذلك في سياق آيات غزوة أحد فقال سبحانه : {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}[آل عمران/١٤٢]. والآيات في ذلك كثيرةٌ جداً.

وبالصبر يتنزل النصر كما قال تعالى في قصة أصحاب طالوت : {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[البقرة/٢٤٩]، وقال عز وجل : {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ}[الأنفال/٦٥]، وفي الآية التي بعدها : {فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[الأنفال/٦٦] وقال النبي صلى الله عليه وسلم (وأنَّ النَّصر مع الصَّبر) رواه أحمد.

وروى ابن أبي الدنيا عن ربعي بن حراش أن عمر قال لأشياخ من بني عبس: بم كنتم تغلبون الناس؟ قالوا بالصبر، لم نلق قومًا إلا صبرنا لهم ما صبروا لنا.

(وقال بعض السَّلف : كلنا يكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصَّبر. وقال البطَّال: الشجاعةُ صبرُ ساعة.)[جامع العلوم والحكم : ١٩٥].

فهؤلاء الربيون قد طردوا عنهم الوهن وأبعدوا الضعف ودفعوا الاستكانة بصبرهم على مُرِّ ما ذاقوا وتجلُّدهم أمام عدوهم، ومما أعانهم على الصبر علمُهم أن كل ما أصابهم إنما هو في سبيل الله كما قال تعالى : (لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، فلمّا أيقنوا أن ما يلاقونه إنما هو في طريق طاعة الله ورجاء ثوابه ونيل مرضاته هانت عليهم الجروح وذابت في بحر يقينهم الهموم فكان تحصيل صبرهم على كل ذلك يسيراً، وفي هذا شيء من المعنى الذي ذكرنا سابقاً في قوله تعالى : (وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)، وهذا كما روى البخاري ومسلم عن جندب

بن سفيان: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بعض المشاهد وقد دميت إصبعه فقال هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت.

الوقفة الخامسة : لما نزل بأولئك الربيين ما نزل من المصاب، وكابدوا الشدائد وصبروا لها، عَلِموا أن كل ما أصابهم إنما هو بذنوبهم –هذا وهم أصحاب الأنبياء – فبادروا إلى الاستغفار، وأشغلوا ألسنتهم به حتى لكأنهم لم ينطقوا بغيره و لم ينصرفوا لسواه كما أخبر الله عنهم بقوله : {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}[آل عمران/١٤٧]، فجمعوا بذلك بين صلاح الظاهر والباطن سواء في أعمالهم وأقوالهم وقلوبهم، فأما أعمالهم فإنهم ما وهنوا لعدوهم ولا ضعفوا أمامهم ولا استكانوا له ونالوا محبة الله بصبرهم، وأما صلاح أقوالهم فكثرة استغفارهم واعترافهم بذنوبهم واتهامهم لأنفسهم، وهذا دليل على صلاح قلوبهم وما فيها من التواضع والخضوع والانكسار والتوبة لله عز وجل.

فما أحوجنا –حقاً- لأن نأتسي بهؤلاء الخيار في هذه الخصال، ونرجع إلى أنفسنا فنتهمها عند الابتلاء بالمصائب- ومنها تسلط الأعداء- فنتوب توبةً نصوحا ونعلم أن ما أصابنا فبما كسبت أيدينا ويعفو عن كثيرٍ، فنكون أقوياء أشداء جُلَداءَ ثابتين صابرين أمام عدونا، ومتواضعين خاضعين منكسرين بين يدي ربنا تلهج ألسنتنا بالاستغفار، والاعتراف بالتقصير، والإقرار بالذنوب بل والإسراف فيها اقتداءً بهؤلاء الأبرار الذين صحبوا الأنبياء ونالوا من ربهم المدح والثناء، فما اغتروا ولا زهوا ولا بطروا.

قال العلامة ابن عطية –رحمه الله- : (واستغفار هؤلاء القوم الممدوحين في هذا الموطن ينحو إلى أنهم رأوا ما نزل من مصائب الدنيا إنما هو بذنوب من البشر)[المحرر الوجيز: ٢/ ٢٢].

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- عن الآية المذكورة : (فجمعوا بين الصبر والاستغفار، وهذا هو المأمور به في المصائب: الصبر عليها والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها.

والقتالُ كثيراً ما يقاتل الإنسان فيه لغير الله كالذي يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء. فهذا كله ذنوب، والذي يقاتل لله قد يسرف فيقتل من لا يستحق القتل، ويعاقب الكفار بأشد مما أمر به)[مجموع الفتاوى:١١ / ٦٩٤].

وقال أيضاً : (فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله وما ضعفوا، وما استكانوا، والله يحب الصابرين، ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب - فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم - وسألوا الله أن يغفر لهم، وأن يثبت أقدامهم، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا، ولا ينكلوا عن الجهاد)[مجموع الفتاوى: ١٤ / ٣٧٤].

وقال –رحمه الله- : (وقد أخبر سبحانه أن كثيراً من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أي ألوف كثيرة وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك، بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو)[الجواب الصحيح:٦ /٤١٥].

وقال الإمام ابن القيم –رحمه الله- : (لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير فى حق أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا...)[زاد المعاد: ٣ /٢٢٥].

وقال العلامة الرازي –رحمه الله- : (إنما قدموا قولهم : "رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا" لأنه تعالى لما ضمن النصرة للمؤمنين، فإذا لم تحصل النصرة وظهر أمارات استيلاء العدو، دل ذلك ظاهراً على صدور ذنب وتقصير من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجب عليهم تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصرة، فبين تعالى أنهم بدأوا بالتوبة عن كل المعاصي وهو المراد بقوله : "رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا" فدخل فيه كل الذنوب، سواء كانت من الصغائر أو من الكبائر، ثم إنهم خصوا الذنوب العظيمة الكبيرة منها بالذكر بعد ذلك لعظمها وعظم عقابها وهو المراد من قوله : " وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا" لأن الإسراف في كل شيء هو الإفراط فيه)[تفسير الرازي: ٤ / ٤٠٨].

وقد ذكرنا من قبل أن من أسباب تحصيل القوة ودفع الهوان والضعف الانكفافَ عن المعاصي، فارتكابها والاستهانة بها والإسراف فيها أيضاً من أعظم أسباب الهزائم والخذلان، فبجانب إعداد القوةِ والتهيؤ لملاقاة العدو والصبر في منازلته يتعيَّن على المجاهدين أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه، ويتهموا أنفسهم في كل ما يحيق بهم، وليحذروا العجب والغرور، والتكبر، والفخر، وفساد النيات، وليجتنبوا ظلم الناس سواء في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، واحتقارَ ضعفائهم، وليكن تفحصهم لأنفسهم أشد من تفحصهم لغيرهم، وليحبِسوا مُكِبَّ الناس في النار على وجوههم (اللسان) إلا بالنطق بما ينفعهم تماماً كفعل

أولئك الربيين الذين لم يكن لهم قولٌ –وهم بين الضرب والطعن – إلا الاشتغال بالاستغفار مع هضمهم لأنفسهم واتهامهم لأعمالهم، وهذا يعني أن التوبة من الذنوب واستغفار الله من اقترافها يجب أن تكون ملاصقة للإنسان في كل أحايينه سواء قبل القتال أو أثناءه أو بعده.

وكذلك ينبغي أن يكون أهل الجهاد جميعاً، فليقدِّموا توبتهم الصادقة وكثرة استغفارهم على طلبهم نصرةَ ربهم وتثبيت أقدامهم فالتخلية قبل التحلية، ثم ليداوموا على ذلك ويجعلوه هِجِّيراهم حتى يلازمهم الصفاء والنقاء والزكاء فينالوا محبة الله بصبرهم في قتالهم وتوبتهم من ذنوبهم فحريٌ بهم آنذاك أن يكونوا أهلاً لتترل نصرة ربهم، فإن الله يحب الصابرين ويحب التوابين، وعليهم أن لا يحتقروا من الذنوب شيئاً سواء منها الظاهرة كالظلم وسفك الدم بغير حقٍ أو أخذ أموال الناس بالباطل أو التقاطع والتهاجر على أمور الدنيا أو الذنوب الباطنة كالعجب، واحتقار الناس، والترُّفع وغير ذلك.

وقد رأينا ما حلَّ بالصحابة رضوان الله عليهم – وبينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم- حينما خالفوا أمره، فكانت الهزيمة بعد النصر والغم بعد الفرح كما قال تعالى : {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[آل عمران/١٥٢]، وقال عز وجل : {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[آل عمران/١٦٥]، فهذا في أمرٍ ظاهرٍ قد ارتكبه بعضهم، فكانت المصيبة شاملةً لهم.

وقال تعالى : {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}[التوبة/٢٥].

قال الإمام ابن تيمية –رحمه الله- : (وظهور الكفار على المؤمنين أحياناً هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم، كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها، فإن النبي إذا قاموا بعهوده ووصاياه، نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له، فإذا ضيعوا عهوده

ظهر أولئك عليهم، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجوداً وعدماً من غير سبب يزاحم ذلك)[الجواب الصحيح: ٦ / ٤١٥].
وقال أيضاً : (وقد قال تعالى: "ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا" فأخبر أن سنة الله التي لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين، والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله، فإذا نقض الإيمان بالمعاصي كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد)[الجواب الصحيح: ٦ / ٤١٩].والله تعالى أعلم.

الوقفة السادسة : أن أولئك الربيين ما سألوا الله تثبيت الأقدام والنصرَ على الكافرين إلا بعد استغفارهم من ذنوبهم، وذلك من تمام معرفتهم بربهم وأدبهم معه سبحانه وتعالى، فقدّموا الإقرار بالذنوب والتوبة منها لعلمهم بأنها سبب ما لحقهم من المصائب، وليكونوا بكثرة استغفارهم أهلاً لاستجابة الله لدعائهم ومحلاً لتثبيته أقدامهم وتنزيل نصره عليهم، فقال تعالى عنهم : {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[آل عمران/١٤٧].
فدعوا بثلاث دعوات : الأولى : أن يغفر الله لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وقد مر الكلام على ذلك.
الثانية : أن يثبت الله أقدامهم عند لقائهم لعدوهم.
الثالثة : أن يُنزل نصره عليهم.
فكل دعواتهم تدل على قوة تعلقهم بربهم، وردِّهم للأمور وتفويضها كلها إليه، وتبرُّئِهم من حولهم وقوتهم، وتيقنهم أن النصر إنما هو من عند الله تعالى، وهذا مما يدل على رسوخ توحيدهم وأنهم قد حازوا منه أعلى المقامات.
قال العلامة الرازي –رحمه الله- : (وأما المذكورون في هذه الآية فإنهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذنب والقصور، وهو المراد من قوله : "اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا"، ولم يروا التدبير والنصرة والإعانة إلا من ربهم، وهو المراد بقوله : "وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَـافِرِينَ" فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال)[مفاتيح الغيب: ٢٥/٩].

وقال الأستاذ سيد قطب-رحمه الله- : (وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء. فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم. صورة الأدب في حق الله وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه. ولكنه لا يُذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله.. لا لتطلب النصر أول ما تطلب - وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس - ولكن لتطلب العفو والمغفرة، ولتعترف بالذنب والخطيئة قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء: "وما كان قولهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين".

إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء. بل لم يطلبوا ثواباً ولا جزاء..لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة. لقد كانوا أكثر أدباً مع الله وهم يتوجهون إليه بينما هم يقاتلون في سبيله. فلم يطلبوا منه - سبحانه - إلا غفران الذنوب وتثبيت الأقدام..والنصر على الكفار. فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار..إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله الكريم.)[في ظلال القرآن:١ / ٤٦٢].

فمع إخبار الله تعالى عنهم بأنهم ما وهنوا لما أصابهم ولا ضعفوا ولا استكانوا إلا أن دعوتهم بأن يثبت الله أقدامهم يدل على أنهم لم يغتروا بقوتهم و لم يتَّكِلوا على عزيمتهم أو يتعلَّقوا بصبرهم وإنما لزموا دعاءهم لربهم بأن يثبت أقدامهم في أرض المعركة حتى لا تنقلب قوتهم ضعفاً وعزيمتهم خوراً وصبرهم جزعاً، فكانوا مظهرين الفقر لله تعالى معترفين بحاجتهم إليه في كل لحظةٍ من لحظاتهم، خائفين أن يكلهم إلى أنفسهم فيهلكوا، وهذا نظير ما ذكره الله تعالى عن أصحاب طالوت : {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة/٢٥٠].

قال العلامة السعدي –رحمه الله- : (ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة)[تفسير السعدي:١٥١].

ثم لم يكتفوا بسؤالهم لله عز وجل بأن يثبت أقدامهم، بل علموا أن ذلك وحده لا يحصِّل النصر ما لم يأذن به الله، فلذا كمَّلوا دعاءهم بأن سألوا ربهم النصر على عدوه وعدوهم، فهو اعترافٌ منهم بتمام قدرة الله وكمال قوته وعزته سبحانه وأن الأمر كله إليه والتدبير منه، فلما تمكّن ذلك في قلوبهم وقطعوا به قطعاً لا ريب فيه شعروا بمعية الله لهم فاستصغروا قوة عدوهم لا سيما وأنهم كافرون، هذا مع بقاء حسن ظنهم بربهم فرغم ما حل بهم من المصاب واستحرار القتل إلا أن طمعهم في تنزل النصر من ربهم لم ينقطع أو يرتفع. فقولهم (وانصرنا على القوم الكافرين) في حكم قولهم: نحن عبادك الذين آمنوا بك وصدّقوا رسلك واتبعوا شرعك اللهم فنصرك على هؤلاء الذين كفروا بك وبدينك وبأنبيائك، فانصرنا بإيماننا واخذلهم بكفرهم، وهذا كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر أنه قال: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتني، اللهم أحنهم الغداة).

وقد تكرر في كتاب الله تعالى كثيراً بيان أن النصر إنما هو من عند الله كما قال عز وجل : { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران/١٦٠]، وقال سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}[محمد/٧]، وقال عز وجل : {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[آل عمران/١٢٦]، وغير ذلك من الآيات.

فمادام تثبيت القلوب والأقدام من عند الله، ولا حيلةَ في تحصيل النصر إلا بإذنه سبحانه فِلمَ لا يكون ديدن أهل الجهاد التزامَ دعاء هؤلاء الربيين الذين مدحهم ربهم، وجعلهم أسوةً لهم لينالوا ما نالوا من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة؟

الوقفة السابعة: بدأت معركة هؤلاء الربيين مع أعدائهم بكثرة القتل فيهم وشدة المصائب عليهم، فتوسطوها وقابلوها بقوة قلوبهم وصرامة عزمهم واستمرار صبرهم، وقطعوا مسيرتها بتوبتهم واستغفارهم وإلحاحهم على ربهم بأن يثبت أقدامهم ويحقق نصرهم : {فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران/١٤٨]، قال العلماء ثواب الدنيا : النصر والغنيمة، وحسن ثواب الآخرة : الجنة ونعيمها، كما قال الإمام ابن

جرير-رحمه الله- : (يعني بذلك تعالى ذكره: فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوهم، والاستعانة بالله في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم على ما أبلوا في الله -"ثوابَ الدنيا"، يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصرُ على عدوهم وعدو الله، والظفرُ، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد ="وحسن ثواب الآخرة"، يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنةُ ونعيمُها)[تفسير الطبري:٧ / ٢٧٥].

وقال العلامة الرازي –رحمه الله-: (: فَآَتَاهُمُ اللّه" يقتضي أنه تعالى أعطاهم الأمرين، أما ثواب الدنيا فهو النصرة والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل، وانشراح الصدر بنور الإيمان وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات، وأما ثواب الآخرة فلا شك أنه هو الجنة وما فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور والتعظيم)اهـ.

فلما أقبلوا على الله بكليتهم، وفوَّضوا إليه كل أمورهم، وبذلوا في سبيل دينه مهجهم، وثبتوا على طريق من قُتِل من أنبيائهم وإخوانهم، وزهدوا في الدنيا وأخرجوا حبّها من قلوبهم- أكرمهم الله سبحانه بأن أعطاهم ثواب الدنيا – ولم يقل من ثواب الدنيا- فجاءتهم بحذافيرها، ثم منَّ عليهم بما هو خيرٌ وأبقى فآتاهم حُسن ثواب الآخرة.

وفي هذا أكبر دليلٍ على أن مَن سلك سبيل الجهاد والتزم أحكامه واستمسك بآدابه ظاهراً وباطناً فتحت له أبواب الخيرِ في الدنيا والآخرة ونال سعادتهما، عكسَ ما يظن كثير من الناس من أن الجهاد سببٌ في الحرمان من الدنيا وطريقٌ لضياعها ومسلكٌ مُهلِكٌ، فمَن جاهد في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله غير ملتفت إلى دنيا ولا متعلقٍ بأهداب زينتها جاءته راغمةً، ومن جعل جهاده طلباً للعلو وبحثاً عن حظوظ الدنيا الفانية وتحمل الشدائد لينال من الناس ثناءً أو ذكراً أو شهرةً خسر الدنيا والآخرة فضاع منه ما يريد وما لا يريد وكان جهاده وبالا عليه: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى/٢٠]

ثم تفضَّل الله عليهم بمحبته –وهي غاية ما يُطلَب- لإحسانهم كما أحبهم لصبرهم حيث قال : (والله يحب المحسنين) والتذييل هنا يدل على دخولهم في هذا الوصف الشريف دخولاً أولياً كما قال العلامة ابن عاشور: (وموقع التذييل يدل على أن المتحدث عنهم من الذين

أحسنوا)اهـ، وفي ذلك إشارة إلى أنهم كانوا أهل يقينٍ راسخ وممن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وسيرتهم وما حكاه الله عنهم وتكرار الثناء عليهم كلها تدل على ذلك.

قال الأستاذ سيد قطب –رحمه الله– : (وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئاً أعطاهم الله من عنده كل شيء. أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة. وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه: "فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة" . .وشهد لهم – سبحانه – بالإحسان. فقد أحسنوا الأدب، وأحسنوا الجهاد، وأعلن حبه لهم وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب)[في ظلال القرآن١ / ٤٦٣].

إذاً فهذه وقائع أحداث حية قصها علينا ربنا سبحانه تكاد صورها تتكرر عبر التاريخ تطول مسيرتها أو تقصر، وقد جاءت في غاية البيان والإفصاح عن سبيل بلوغ النصر والتمكين والفتح (ثواب الدنيا)، وبينت ما يجب أن يكون عليه المجاهدون في سيرة جهادهم ومسيرتهم، وأن نصر الله قريبٌ منهم إن هم سلكوا سنن تحصيله الشرعية منها والكونية، وأن حالهم ليس كحال أعدائهم ممن لا ترى عينه من أسباب النصر إلا الماديات الصرفة فلا يلتفتون إلى ذنب ولا إسرافٍ ولا بغي، ولا يعرفون ضعف إيمان ولا قوته، بل هم يعلمون أن وقع الذنوب والمعاصي على جيوشهم وجماعاتهم أشد وأنكى وأفتك مما تفعله القنابل والصورايخ، ومن لم يدرك هذه الحقيقة فأهملها و لم يرفع بها رأساً، وذهب يبحث عن نصره –فقط– بين ذخائره وأسلحته وتدريباته وخططه وذكائه وخبرته غير مبالٍ بذنب يقترف ولا مكترثٍ بخطيئة ترتكب ولا ملتفتٍ إلى معاصيَ تُجترَح–فقد هلك وأهلك.

وقد أوصى عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أمير جنده سعد بن أبي وقَّاص فكان مما جاء في وصيته : (أما بعد فإني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي من احتراسكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون على عدوهم بمعصية عدوهم لله، ولولا ذاك لم يكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوى، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله

يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل – لما عملوا بالمعاصي– كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألون النصر على عدوكم..)اهـ.

فهذه دعوة خالصة إلى إخواني المجاهدين، وقد اشتد بهم الأمر، وتكالب عليهم الأعداء، وركبتهم أنواع المصائب أن يقفوا جميعاً وقفة صدقٍ يعلمها منهم ربهم يسلكون فيها سبيل هؤلاء الربانيين الذين نالوا ما نالوا من شرف الدنيا والآخرة لما أتوا البيوت من أبوابها، فالله الذي نصرهم وأعزهم وأكرمهم هو ربنا الذي نعبده سبحانه وهو ولينا ومولانا ونصيرنا نعم المولى ونعم النصير، وهو القادر على أن يكرمنا كما أكرمهم ويعزنا كما أعزهم ويعطينا كما أعطاهم، ويذل عدونا كما أذل عدوهم، إذاً فلنشمر عن ساعد الجد، ولنعقد العزيمة من أعماق قلوبنا على أمورٍ ليس بعدها إلا الفتح والتمكين وكشف البلاء بإذن الله :

الأول : طرد وهن القلوب وجزعها، وإبعاد ضعف الأجساد وكسلها، وعدم الاستكانة للأعداء مهما بلغ كيدها.

الثاني : إخلاص النية لله تعالى واحتساب الأجر في كل ذلك، وجعْلُ جهادنا (في سبيل الله) ولإعلاء كلمته فتهون علينا مصائبنا وتخِفُّ آلامنا.

الثالث : الصبرُ على لأواء الطريق وشدائدها، وتمكين معنى (أن النصر مع الصبر) في النفوس لتقوى آمالها، مع استحضار ما أعد الله للصابرين وبشَّرهم به من خير الدنيا والآخرة، وما نالوه من معيته ومحبته.

الرابع : إدامة الاستغفار، مع صدق التوبة، والاعتراف أن ما أصابنا فبسبب ذنوبنا، ولنحذَر من المنَّة على الله في أعمالنا، وتهوين أمر ذنوبنا باستحضار حسنة جهادنا، فذلك من تمام الخذلان والعياذ بالله.

الخامس : إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرؤ من الحول والطول، ومن ثَم الحذر من العجب والغرور، والافتتان بالخبرات والفتوحات بل قل: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فاجعله فضلاً من ربك عليك تفلح، ولا تقل –بلسان حالك أو مقالك– إنما أوتيته على علمٍ عندي فتَهلك وتُهلِك!.

السادس : الإكثار من دعاء الله تعالى بأن يثبت أقدامنا ويربط على قلوبنا ويقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن، سواء أثناء خوض المعارك، أو باعتبار مسيرة الجهاد العامة الكبيرة التي نسلكها.

السابع : التيقن بأن النصر إنما هو من عند الله وحده، فنتضرع إليه ونلح عليه أن يعجل بإنزاله، فيعزّ أولياءه ويذل أعداءه، ويعلي كلمته ويمكّن لشريعته.

ختاماً وختامه مسك

وأتمم ما كتبتُ بكلمة ذهبية لشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– عن الآية المذكورة رأيت أنها ترفع الهمة، وتقوي العزائم، وتبعث على مواصلة الطريق، وتؤمّل في حسن العاقبة لسالكي هذا الدرب اللاحب إذ يقول : (بَلْ كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ وَقَاتَلَ عَلَى دِينِهِ فَقَدْ قَاتَلَ مَعَهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ قُتِلَ عَلَى دِينِهِ فَقَدْ قُتِلَ مَعَهُ، وَهَذَا الَّذِي فَهِمَ الصَّحَابَةُ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ قِتَالِهِمْ كَانَ بَعْدَ وَفَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى فَتَحُوا الْبِلَادَ شَامًا وَمِصْرًا وَعِرَاقًا ويمناً وَعَرَباً وَعَجَماً وَرُوماً وَمَغْرِباً وَمَشْرِقاً، وَحِينَئِذٍ فَظَهَرَ كَثْرَةُ مَنْ قُتِلَ مَعَهُ فَإِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا وَأُصِيبُوا وَهُمْ عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ كَثِيرُونَ، **وَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبْرَةٌ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**، فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ يُقَاتِلُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى دِينِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ، وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ يَغْزُونَ فِي السَّرَايَا وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُمْ : كَانُوا مَعَهُ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ دَاخِلُونَ فِي قَوْلِهِ : "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ" الآية، وَفِي قَوْلِهِ : "وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ" الْآيَةَ. لَيْسَ مِنْ شَرْطِ مَنْ يَكُونُ مَعَ الْمُطَاعِ أَنْ يَكُونَ مُشَاهِدًا لِلْمُطَاعِ نَاظِرًا إلَيْهِ)[مجموع الفتاوى :١ / ٦١].

هذا والله تعالى أعلم ولا حول ولا قوة إلا به، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على نبيه وصفيّه وخليله محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم لقاه.

وكتبه / أبو يحيى الليبي (حسن قائد)

الاثنين ١٦/ذو القعدة/١٤٣١هـ

ادعوا لإخوانكم المجاهدين

إخوانكم في

مركـــز الفجـــر للإعـــلام

ربيع الآخر ١٤٣٢هـ